

ما مصدرية أي: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي.
لَكُمْ وَيَكْفُرُوا وَلِي دِينٍ ①.

﴿لَكُمْ بَيْنَكُمْ وَلِي دِينٍ﴾ لكم شرككم ولي توحيدني. والمعنى أنني نبي مبعوث إليكم لادعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني فدعوني كفأفاً ولا تدعوني إلى الشرك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكافرين فكانتما قرأ ربع القرآن وتباعدت منه مردة الشياطين وبرئ من الشرك ويعافى من الفزع الأكبر»⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النصر مدنية

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①.

﴿إِذَا﴾ منصوب يسبح، وهو لما يستقبل، والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة. روي أنها نزلت في أيام التشريق بمنى في حجة الوداع.

فَإِنْ قُلْتَ: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه؟ **قُلْتُ:** النصر الإغاثة والإظهار على العدو، ومنه نصر الله الأرض غائتها. والفتح فتح البلاد، والمعنى: نصر رسول الله ﷺ على العرب أو على قريش وفتح مكة. وقيل: جنس نصر الله للمؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم. وكان فتح مكة لعشر ماضين من شهر رمضان سنة ثمان، ومع رسول الله ﷺ عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب، وأقام بها خمس عشرة ليلة، ثم خرج إلى هوزان وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ثم قال: يا أهل مكة ما ترون أنني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فاعتقهم رسول الله ﷺ⁽³⁾. وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوةً وكانوا له فياً فلذلك سمي أهل مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الكافرون مكية

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ①.

المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون. روي أنه رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا وتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة. فقال: معاذ الله أن أشرك بالله غيره. فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصنقك ونعبد إلهك، فنزلت. فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملا من قريش فقام على رؤسهم فقرأها عليهم فأيساوا.

لَا أَعْبُدُ مَا يَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③.

﴿لا أعبد﴾ أريدت به العبادة فيما يستقبل لأن لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، ألا ترى أن لن تأكيد فيما تنفيه لا. وقال الخليل في لن أن أصله لا أن. والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي.

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ④.

﴿ولا أنا عابد ما عبثتم﴾ أي: وما كنت قط عابداً فيما سلف⁽¹⁾ ما عبثتم فيه. يعني: لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام.

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤.

﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي: وما عبثتم في وقت ما أنا على عبادتي.

فَإِنْ قُلْتَ: فهلا قيل: ما عبثت، كما قيل: ما عبثتم؟ **قُلْتُ:** لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث وهو لم يكن يعبد. الله تعالى في ذلك الوقت.

فَإِنْ قُلْتَ: فلم جاء على ما بون من؟ **قُلْتُ:** لأن المراد الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق. وقيل: أن

(1) قال أحمد: هذا الذي قاله خطأ على الأصل والفرع جميعاً، إما على أصله القدرى، فإنه وإن كان مقتضاه أن النبي ﷺ لم يكن قبل المبعث على دين نبي قبله، لاعتقاد القدرية أن ذلك غميرة في منصبه ومنفر من اتباعه، فيستحيل وقوعه للمفسدة، إلا أنهم يعتقدون أن الناس كلهم متعبدون بمقتضى العقل بوجوب النظر في آيات الله تعالى وأدلة توحيدِهِ ومعرفته، وإن وجوب النظر بالعقل لا بالسمع، فتلك عبادة قبل المبعث يلزمهم أن لا يظنوا به ﷺ الإخلال بها، فحينئذ يقتضى أصلهم أنه كان قبل المبعث يعبد الله تعالى، فالزمخشري حافظ على الوفاء بأصله في عدم اتباعه لنبي سابق، فاخل بالفرع على أصله الآخر في وجوب العبادة بالعقل، والحق أن النبي ﷺ كان يعبد قبل الوحي ويتحدث

= في غار حراء، فإن كان مجيء قوله: أعبد؛ لأن الماضي لم يحصل فيه هذه العبادة المرادة في الآية، فيجمل الأمر فيها والله أعلم على مجموع العبادات الخاصة التي لم تعلم إلا بالوحي، لا على مجرد توحيد الله تعالى ومعرفته، فإن ذلك لم يزل ثابتاً له ﷺ قبل المبعث، والله أعلم، أو يكون مجيئه مضارعاً لقصده تصوير عبادته في نفس السامع وتمكينها من فهمه، كقوله: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ والأصل: فأصبحت، وإنما عدل عنه للمعنى المنكسر وهو وجه حسن فتمأله، والله أعلم.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الفتح في رمضان (الحديث رقم: 4275).

(3) أخرجه الإمام أحمد في المسند (الحديث رقم: 343/3).

الطلاق. ثم بايعوه على الإسلام.

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَقْوَابًا (٢)

بين الطاعة والاحتراس من المعصية، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفًا لامته، ولأن الاستغفار من التواضع لله وهضم النفس فهو عبادة في نفسه. وعن النبي ﷺ: «إني لاستغفر في اليوم والليلة مائة مرة»⁽⁵⁾. وروي أنه لما قراها رسول الله ﷺ على أصحابه استبشروا، وبكى العباس، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عم؟» قال: نعت إليك نفسك. قال: «إنها لكما تقول، فعاش بعدها سنتين لم ير فيهما ضاحكًا مستبشراً. وقيل: إن ابن عباس هو الذي قال ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أوتي هذا الغلام علمًا كثيرًا»⁽⁶⁾. وروي أنها لما نزلت خطب رسول الله ﷺ فقال: إن عبدًا خير الله بين الدنيا وبين لقاءه فاختر لقاء الله. فعلم أبو بكر رضي الله عنه فقال: فيديك بأنفسنا وأمواننا وآبائنا وأولادنا»⁽⁷⁾. وعن ابن عباس أن عمر رضي الله عنهما كان يدينه ويأتمن له مع أهل بدر فقال عبد الرحمن: أتأتمن لهذا الفتى معنا وفي أبائنا من هو مثله. فقال: إنه ممن قد علمتم. قال ابن عباس: فأنتم لهم ذات يوم وأنتم لي معهم فسألهم عن قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرَ اللَّهِ﴾⁽⁸⁾ ولا أراه سألهم إلا من أجلي. فقال بعضهم: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه. فقلت: ليس كذلك، ولكن نعتت إليه نفسه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم. ثم قال: كيف تلومونني عليه بعد ما ترون»⁽⁹⁾. وعن النبي ﷺ أنه دعا فاطمة رضي الله عنها فقال: «يا بنتاه إنه نعتت إلي نفسي». فبكت. فقال: «لا تبكي فإنك أول أهلي لحوقًا بي»⁽¹⁰⁾. وعن ابن مسعود: أن هذه السورة تسمى سورة التوديع ﴿كَانَ تَوْبًا﴾ أي: كان في الأزمنة الماضية منذ خلق المكلفين توبًا عليهم إذا استغفروا، فعلى كل مستغفر أن يتوقع مثل ذلك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا جاء نصر الله أعطي من الأجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة»⁽¹¹⁾.

﴿في دين الله﴾ في ملة الإسلام التي لا دين له يضاف إليه غيرها، ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه. ﴿أقوابًا﴾ جماعات كثيفة كانت تنخل فيه القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون فيه واحدًا واحدًا واثنين اثنين. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه بكى ذات يوم، فقيل له، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دخل الناس في دين الله أفواجًا وسيخرجون منه أفواجًا»⁽¹⁾. وقيل: أراد بالناس أهل اليمن. قال أبو هريرة: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، جاء نصر الله والفتح، وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الإيمان يمان والفتح يمان والحكمة يمانية»⁽²⁾. وقال: «أجد نغير ربكم من قبل اليمن»⁽³⁾. وعن الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة آتت العرب بعضها على بعض فقالوا: أما إذ ظفر بأهل الحرم فليس به يدان. وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل وعن كل من أرادهم، فكانوا يدخلون في الإسلام أفواجًا من غير قتال. وقرأ ابن عباس: فتح الله والنصر، وقرئ: يدخلون على البناء للمفعول.

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا مَحَلْ يَدْخُلُونَ؟ قُلْتُمْ: النَّصَبُ إِمَّا عَلَى الْحَالِ عَلَى أَنْ رَأَيْتَ بِمَعْنَى أَبْصَرْتَ أَوْ عَرَفْتَ، أَوْ هُوَ مَفْعُولٌ ثَانٍ عَلَى أَنَّهُ بِمَعْنَى عِلْمَتْ.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوْبًا (٣)

﴿فسبح بحمد ربك﴾ فقل سبحان الله حامدًا له، أي: فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر ببالك وبال أحد من أن يغلب أحد على أهل الحرم وأحمده على صنعه، أو فأنكره مسبحًا حامدًا زيادةً على عبادته والثناء عليه لزيادة أنعامه عليك، أو فصل له. روت أم هانئ أنه لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى ثماني ركعات، وعن عائشة: كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك وأتوب إليك»⁽⁴⁾. والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للامر بما هو قوام أمر الدين من الجمع

- (1) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه (الحديث رقم: 52/82).
- (2) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص 583.
- (3) قال ابن حجر: لم أجده هكذا، فإن ظاهره يومه أنه صلاها داخل الكعبة، وفي الصحيح ما أخرجه في كتاب: المغازي، باب: منزل النبي ﷺ يوم الفتح (الحديث رقم: 4292)، ورواه أبو داود بنحو آخر في كتاب: الصلاة، باب: صلاة الضحى (الحديث رقم: 1290).
- (4) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: التسبيح والدعاء في السجود (الحديث رقم: 817)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (الحديث رقم: 484/217).
- (5) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه (الحديث رقم: 2702/41).
- (6) أخرجه الثعلبي في تفسيره زيلعي 319/4.
- (7) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ (الحديث رقم: 3904)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضائل أبي بكر رضي الله عنه (الحديث: 2/2382).
- (8) سورة النصر، الآية: 1.
- (9) أخرجه البخاري بمعناه في كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ (الحديث رقم: 4970).
- (10) أخرجه البيهقي في أواخر الدلائل، وابن مردويه في تفسيره، زيلعي 322/4، وله شاهد عند البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة (الحديث رقم: 3623).
- (11) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والوحيد في تفاسيرهم زيلعي: 4/324.